

إسهامات علماء المسلمين في الحركة الفكرية في بغداد تاريخ بغداد للخطيب البغدادي نموذجاً

■ بقلم الدكتور محمد مختار المفتي

❖ تمهيد:

تطورت الكتابة التاريخية عند المسلمين تطوراً هائلاً، وشملت مناحي الحياة المختلفة وسجلت دقائقها، وترجمت لأعلامها، وكان من بين صور التأليف التاريخي التي شاعت منذ منتصف القرن الثالث الهجري ما يُعرف بالتاريخ المحلي؛ حيث يعتمد المؤرخ إلى الكتابة عن مدينته، ويؤرخ لها دون غيرها من المدن؛ اعتزازاً بها، وتسجيلاً لحركتها الفكرية، وبدأت تظهر سلسلة من تواريخ المدن توافر على كتابتها عدد من أبنائها، حتى أضحت كتابة هذه التواريخ البدائية تقليداً لدى العلماء تتوارثه الأجيال.

وصار الإطار المكاني هو الذي يربط بين علمائها، وجرى تنظيم هذه المؤلفات على أساس الترتيب الألفبائي، وكان من شأن هذه الكتب أنها حفظت لنا الحركة الحضارية وفاعلياتها داخل تلك المدن، ولم تشغل نفسها بالأحداث السياسية وأدوار رجالها.

وتوالى الكتب التي تتناول المدن الكبيرة وحواضر الدول؛ مثل: بغداد، ودمشق، والقاهرة، ومكة، وحلب، وهي كتب تتناول تاريخ هذه المدن - لا على أساس أحداثها السياسية وخلفائها ووزرائها وولاتها-، ولكن على أساس رجالها وعلمائها الذين ملأوا مساجدها ومدارسها درساً وتأليفاً،

وفقهاؤها، فالتزم حلقة "أبي الحسن بن رزقوية"، وكان محدثاً عظيماً، له حلقة في جامع المدينة ببغداد، وتردد على حلقة أبي بكر البرقاني، وكان مبرزاً في علم الحديث، فسمع منه وأجازه، واتصل بالفقيه الشافعي الكبير "أبي حامد الإسفرائيني"، وتلمذ على يديه، كما التقى بالعلماء الواردين على بغداد، وأخذ عنهم.

❖ الرحلة في طلب العلم:

كانت الرحلة في طلب العلم من التقاليد عند علماء المسلمين؛ فبعد أن ينهل الطالب من علماء بلده والبلدان المحيطة، يبدأ في الاستعداد للرحلة إلى الحواضر الكبرى، وقد ألف الخطيب البغدادي رسالة في هذا الموضوع باسم "الرحلة في طلب الحديث"، أورد فيها الأحاديث والآثار التي جاءت في فضل الرحلة، وسجل رحلات الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، وبين الغرض من الرحلة وهو تحصيل علو الإسناد، ولقاء الحفاظ والمذاكرة معهم.

كانت البصرة هي المدينة التي قصدتها، وهو في العشرين من عمره في سنة (٤١٢ هـ = ١٠٢١ م) والتقى بعلمائها الكبار وأخذ عنهم، ثم عاد إلى بغداد في السنة نفسها، وبدأ اسمه في الذيوع والانتشار، ثم عاود

ولما دعيت للمشاركة في ورقة بحثية في مؤتمر بغداد مدينة السلام، اخترت تسليط الضوء على محور إسهامات علماء المسلمين في الحركة الفكرية في بغداد، وكان أول ما انقذ في ذهني الكتابة عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. إذ كان رحمه الله ممن أسهموا في هذا الجانب التاريخي بكتابه الكبير "تاريخ بغداد" الذي جمع فيه خلاصة ترجمة العلماء الذين عرفتهم ببغداد حتى أواسط القرن الخامس الهجري، وأصبح مثلاً يحتذى به كل من تطرق إلى التاريخ للمدن مثل: ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق"، وابن العديم في كتابه "بغية الطلب في تاريخ حلب".

❖ ترجمة موجزة للخطيب البغدادي^(١):

المولد والنشأة: في "غزية" من قرى الحجاز ولد أحمد بن علي بن ثابت في يوم الخميس الموافق (٢٤ من جمادى الآخرة ٣٩٢ هـ الموافق ١ من ديسمبر ١٠٥٤ م)، ونشأ في "درزيجان"، وهي قرية تقع جنوب غرب بغداد؛ حيث كان أبوه يتولى الخطابة والإمامة في جامعها لمدة عشرين عاماً، وعُني به أبوه عناية فائقة، فدفع به إلى من أدبّه وحفظه القرآن، ولما اشتد عوده بدأ يتردد على حلقات العلم في بغداد، وكانت آنذاك تموج حركة ونشاطاً بعلمائها

الرحلة بعد مضي ثلاث سنوات على رحلته الأولى، واتجه إلى نيسان بمشورة شيخه أبي بكر البرقاني سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م)، وفي طريقه إليها مر بمدن كثيرة كانت من مراكز الثقافة وحواضر العلم، فنزل بها وأخذ عن شيوخها، حتى إذا استقر بنيسابور بدأ في الاتصال بعلمائها وشيوخها، فأخذ عن أبي حازم عمر بن أحمد العبدوي، وأبي سعيد بن محمد بن موسى بن الفضل بن ساذان، وأبي بكر أحمد بن الحسن الحرشي، وصاعد بن محمد الاستوائي وغيرهم، ثم عاد إلى بغداد.

ثم عاود الرحلة إلى أصبهان سنة (٤٢١هـ = ١٠٣٠م)، واتصل بأبي نعيم الأصبهاني صاحب "حلية الأولياء"، فلأزمه وروى عنه، كما روى عن عدد من العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم رواياتهم، وكرّر راجعاً إلى بغداد، واستقر بها مدة طويلة.

أصبح الخطيب البغدادي معقد الآمال في بغداد، ومقصد الطلاب من كل مكان، وموضع احترام الناس وتقديرهم، يلجأون إليه في الملمات، وحدث أن أظهر بعض اليهود في سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) كتاباً ادعوا فيه أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات

الصحابة، وذكروا أن خط علي فيه، فلما أرسل الكتاب إلى وزير الخليفة القائم بأمر الله عرضه على الخطيب البغدادي، فتأمله ثم قال: هذا مزور؛ فلما قيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: من شهادة معاوية؛ فهو أسلم عام الفتح سنة (٨هـ = ٦٢٩م)، وفتحت خيبر في سنة (٧هـ = ٦٢٨م)، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين، فاستحسن الوزير ذلك من الخطيب، ولم يجزهم الوزير على ما جاء في الكتاب، وأخذ منهم الجزية.

وما قام به الخطيب دليل على سعة علمه وتبحره في التاريخ، ومعرفته الدقيقة بالرجال والنقد التاريخي، والبصر الدقيق بالسند والمتن، وقد رفعت هذه الحادثة مكانته عند وزير الخليفة؛ فجعله مرجع الخطباء والوعاظ في الحديث؛ فلا يروون حديثاً حتى يعرضوه عليه؛ ليرى درجته ومبلغ صحته وضعفه؛ فإن كان صحيحاً أذاعوه، وإن كان ضعيفاً ردوه.

♦ معاودة الرحلة:

ظل الخطيب في بغداد حتى سنة (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) عاكفاً على التأليف، مشغولاً بتدريس الحديث وإملائه بمسجد المنصور، ثم غادرها إلى "دمشق" تسبقه

البرقاني، وأبي القاسم الأزهري، وبعضهم من زملائه وأقرانه مثل أبي إسحاق الشيرازي، والحافظ ابن ماکولا، وأبي عبد الله الحميدي الأندلسي. أما طلابه وتلاميذه فكثيرون، منهم: عبد الكريم بن حمزة مسند الشام، وأبي بكر المرزقي، وهبة الله الأكفاني، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي، وأبي الوفاء علي بن عقيل الفقيه المعروف.

❖ منزلته في الحديث والتاريخ:

جمهور أهل العلم مطبق على إمامة الخطيب البغدادي في الحديث وعلومه وتحريه، وإتقانه وعلو منزلته في التاريخ والتراجم.

قال الحافظ ابن ماکولا: إن الخطيب البغدادي كان آخر الأعيان، ممن شاهدناه معرفة، وإتقانا وحفظا وضبطا لحديث رسول الله ﷺ، وتفننا في علته وأسانيده، وخبرة برواته وناقليه، وعلمنا بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره وسقيمه ومطروحه ولم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني من يجري مجراه، ولا قام بعده منهم بهذا الشأن سواه، وقد استفدنا كثيرا من هذا اليسير الذي نحسنه به وعنه، وتعلمنا شطرا من هذا القليل الذي نعرفه بتبنيه ومنه، فجزاه

شهرته الواسعة، وكان قد سبق له أن زارها كثيرا قبل هذه الرحلة، لكنه في هذه المرة طالت به فترة إقامته، وكان يعقد مجلسه في الجامع الأموي؛ يحدث بمصنفاته ومروياته وسط حشد هائل من تلاميذه وطلبة العلم ومحبيه، وكانت دمشق آنذاك تابعة للدولة الفاطمية، فسعى الوشاة إلى إحداث وقیعة بينه وبين الفاطميين، واستندوا إلى أنه يحدث بكتاب "فضائل الصحابة الأربعة" للإمام أحمد بن حنبل وفضائل العباس لأبي الحسن بن رزقويه، وكادت الوشاية تؤدي إلى قتله لولا تدخل بعض العارفين لقدر الإمام، فعملوا على إخراجهم من دمشق، وتوجه إلى صور سنة (٤٥٩هـ = ١٠٦٦ م) وكان يحدث بجامعها، ويزور القدس ويعود ثانية، ثم غادر "صور" بعد أن مكث بها فترة طويلة، وقصد "طرابلس" سنة (٤٦٢هـ = ١٠٦٩ م)، ثم اتجه إلى حلب، ثم عاد في السنة نفسها إلى بغداد بعد غياب طويل عنها دام نحو أحد عشر عاماً، فوصلها في (ذي الحجة ٤٦٢هـ = ١٠٦٩ م)، واستأنف سيرته العلمية.

❖ أستاذ لشيوخه:

اشتهر الخطيب بكثرة مروياته وسعة علمه؛ فروى عنه كثيرون، بعضهم كان من شيوخه، مثل شيخه أحمد بن محمد

الله عنا الخير، ولقّاه الحسنی.

- قال الساجي: ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني مثل الخطيب.

قال شيخه أبو إسحاق الشيرازي الفقيه: أبو بكر الخطيب يشبه بالدارقطني ونظرائه في معرفة الحديث وحفظه.

واتفقت كلمة المحدثين على توثيق الخطيب والثناء عليه، وأنه حجة ثبت في نقوله، بارع في مؤلفاته، متقن لرواياته^(٢).

♦ مؤلفاته:

قضى الخطيب عمره في طلب العلم، والرحلة إلى شيوخه، يأخذ عنهم مصنفاتهم ومروياتهم، وعني بالحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والأدب والتاريخ والأخبار، وإن كانت شهرته باعتباره حافظاً قد غلبت عليه؛ لأن عنايته بالحديث وعلومه قد استأثرت بمعظم جهوده، ويتضح ذلك من قائمة مؤلفاته؛ حيث تحتل كتب الحديث وعلومه المرتبة الأولى من بينها، ويبلغ مجموع مؤلفاته ستة وثمانين كتاباً، سأورد المطبوع منها:

"الكفاية في علم الرواية"، وهو من أهم الكتب التي ألفت في علم مصطلح الحديث؛ حيث اشتمل على فنون هذا العلم ومصطلحاته المستعملة في كتب الحديث

وتحديد معانيها بدقة، وقد استفاد من الكتاب كل من تعرض لهذا العلم الجليل مثل القاضي عياض، وابن الصلاح.

وقد طبع الكتاب في الهند أولاً عام ١٣٥٧هـ، ثم طبع في مصر في مطبعة السعادة عام ١٩٧٢م بعناية الأستاذين عبد الحليم محمد وعبد الرحمن حسن. ثم طبع بتحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م.

وله "الجامع لأدب الراوي وأخلاق

السامع" تناول فيه آداب طالب علم الحديث، وهيئته وكيفية تعامله مع شيخه، وسلوكه في حضرة مجلسه، وتعرض لمظهره وكلامه ومشيه ومجلسه، وبين آداب معاملة الشيخ لتلاميذه وتوقيره لهم، وتعرض لمظهره وكلامه ومشيه ومجلسه، وتحريه الصدق، واختياره الرواية من أصل مكتوب، وما يلزمه معرفته من النحو والصرف؛ وذكر صفة مجلس المحدث ووقته وموضعه، وغير ذلك من مباحث الكتاب. طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد، ونشرته مكتبة الفلاح بالكويت عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ثم طبع ثانية بتحقيق الدكتور محمود الطحان، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ثم طبع بتحقيق الدكتور

ونادر كلامهم وأشعارهم نشره حسام الدين القدسي في دمشق عام ١٣٤٦هـ، وحققه عبدالله عبد الرحيم، دار المدني، جدة ١٩٨٦م. وله طبعات أخرى.

والإجازة للمعدوم والمجهول وهي رسالة صغيرة طبعت مع عدة رسائل بعناية صبحي السامرائي في مطابع المجد بالقاهرة عام ١٣٨٩هـ. وحققها الدكتور صالح يوسف معتوق، مجلة الأحمديّة، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي العدد ٦.

وله **"تقييد العلم"**، طبع بتحقيق الدكتور يوسف العش، ونشره المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٤٩م.

والرحلة في طلب الحديث، طبع أولاً في القاهرة عام ١٣٨٩هـ ضمن مجموعة رسائل بعناية صبحي السامرائي، ثم حققه الدكتور نور الدين عتر ونشره بدمشق عام ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

والمتفق والمفترق تحقيق محمد صادق الحامدي، دار القادري، بيروت ١٩٩٧م.

وموضح أوهام الجمع والتفريق، طبع في حيدر آباد الدكن بالهند عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م بتحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني.

محمد عجاج الخطيب، ونشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

وله أيضاً **"شرف أصحاب الحديث"** تحقيق الدكتور محمد سعيد أوغلي، دار إحياء السنة النبوية، مطبعة جامعة أنقرة / تركيا، الطبعة الأولى ١٩٧١م. ثم طبع في عالم الكتب، بيروت ٢٠٠٣م.

و **"نصيحة أهل الحديث"**، طبع عدة طبعات آخرها عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م تحقيق زميلنا الدكتور عبد الكريم الوريكات، مكتبة المنار، الأردن.

وله **"الفقيه والمتفقه"** تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، ١٩٧٢م، وطبع أيضاً بمطابع القصيم بالرياض عام ١٣٨٩هـ / بعناية إسماعيل الأنصاري. كما حققه عادل العزازي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

واقضاء العلم العمل طبع بدمشق عام ١٣٨٥هـ بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

و **"البخلاء"** طبع في مطبعة العاني ببغداد سنة ١٩٦٤م بتحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي وأحمد ناجي القيسي.

و **"التطفيل وحكاية الطفيلين وأخبارهم"**

و"الفصل للوصل المدرج في النقل"

تحقيق زميلنا الدكتور عبد السميع الأنيس، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ومطبوع أيضا بتحقيق محمد مطر الزهراني، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، وحققه محمود نصار، الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م.

و"الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة"

طبع في مطبعة المدني في مصر عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م بتحقيق عز الدين علي السيد وهو من منشورات مكتبة الخانجي.

و"السابق واللاحق في تباعد ما بين"

وفاة راويين عن شيخ واحد" نشرته دار طبعة في الرياض عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م بتحقيق محمد بن مطر الزهراني.

و"تلخيص المتشابه في الرسم وحماية"

ما أشكل منه عن بواذر التصحيف والوهم" حققته سكيئة الشهابي، مكتبة طلاس، دمشق ١٩٨٥م، وحققه محمد إسماعيل دار الكتب العلمية، بيروت. ٢٠٠٣م.

و"تالي تلخيص المتشابه" تحقيق مشهور

حسن، دار الصمعي، ط١، الرياض ١٩٩٧.

وله "القول في علم النجوم" تحقيق

يوسف السعيد، دار أطلس، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

وله "ذكر صلاة التسبيح" تحقيق فراس مشعل، الدار الأثرية، عمان، الأردن. وحققته أيضا الدكتورة إيمان علي عبد الغني، دار البشائر، بيروت.

وله رسالة "الصفات" تحقيق أحمد فريد المزيدي، طبعت مفردة ضمن مجموع في دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ.

وله "تاريخ الأنبياء" تحقيق آسيا كليبان علي البارح، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤م.

و"مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما"

أسند إليه والرد على الطاعنين لعظم جهلهم عليه" تحقيق الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢، ١٤٠٠هـ/الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٩٨٠.

وله "تاريخ بغداد" الذي سأسير إلى طبعاته في خاتمة البحث، صنفه الخطيب البغدادي لخدمة الحديث كما أشرت من قبل.

هذه أهم الكتب والرسائل المطبوعة والمتداولة. وله مصنفات أخرى ذكرها



العلماء في العقائد والفقه وأصوله والزهد والرقائق والأدب.

❖ وفاته:

بعد عودة الخطيب البغدادي من الشام واستقراره سنة (٤٦٢هـ=١٠٦٩م) قام بالتدريس في حلقاته بجامع المنصور، واجتمع حوله طلابه وأصحابه، غير أن حياته لم تطل، فلقى ربه في (٧ من ذي الحجة ٤٦٣م).

❖ أهمية كتاب تاريخ بغداد:

موضوع كتاب "تاريخ بغداد" علم الرجال، وهو أحد فروع علم التاريخ.

يعد "تاريخ بغداد" من أهم وأكبر مؤلفات الخطيب البغدادي أحمد بن علي ابن ثابت (ت ٤٦٣هـ=١٠٧٦م) وأكثرها شهرة على الإطلاق، وهو موسوعة علمية تاريخية في تراجم الرجال، ونال من أجله صاحب الكتاب صيتاً ذائعاً لما تميز به من ميزات عظيمة، وهو أوسع مصدر عن الحياة الفكرية في بغداد، ويعد أول كتاب وصل إلينا تناول تاريخ علماء بغداد منذ تأسيسها إلى عصر المؤلف منتصف القرن الخامس الهجري.

وتظهر أهمية الكتاب بما حواه من تراجم بلغت حوالي (٧٨٣١) ترجمة شملت

هذه التراجم العلماء من فقهاء ومحدثين فضلاً عن رجال الدولة من خلفاء ووزراء.

وكما تجلت أهميته في المقدمة التي وصف بها مدينة بغداد منذ تأسيسها حيث بين فيها مراحل بنائها من اختيار المكان وتخطيطه والعاملين فيها واعتمد في ذلك على الذين سبقوه مثل اليعقوبي والطبري وابن طيفور وغيرهم. ولقد وصف الدكتور العمري تاريخ بغداد (بتاريخ النخبة) لأن الخطيب تناول في كتابه العلماء البارزين وأصحاب الكفاءات وخاصة العلماء الذي ينتمي إلى طبقتهم^(٣).

وتكمن أهمية هذا المؤلف في توضيح الجوانب الحضارية لمدينة بغداد، حيث يبين في ثنايا كتابه مظاهر الحياة الثقافية والتعليمية، المتمثلة في بيان طرائق التدريس ومناهج العلماء ومقاييسهم، وعلاقتهم مع تلاميذهم ومعرفة المدارس التي ظهرت في بغداد وبيان المناظرات العلمية بين العلماء والحلقات الدراسية في المساجد.

وأظهر الكتاب أهمية بغداد في العالم الإسلامي ومكانتها العلمية الكبيرة إذ وضع كثرة ورود الطلاب إلى بغداد لطلب

العلم من علمائها، كما بين الكتاب مدى الاتصال الفكري والتعاون بين بغداد ومدن العالم الإسلامي.

ورد في الأثر أن مناقشة دارت بين عالَمين فسأل أحدهما الآخر هل زرت بغداد؟ فقال: لا، فقال له: أنك لم تر الدنيا.

وتكمن أهمية كتاب تاريخ بغداد العظمى في اهتمامه بمجال الحديث الشريف إذ ترجم لحوالي خمسة آلاف محدث ويبدو أنه وضعه في الدرجة الأولى لخدمة علم الحديث والسنة النبوية من خلال تراجم رجال الحديث، وقد عني ببيان حالهم من الجرح والتعديل، وفي جانب رواية الحديث اشتمل على (٤٣٨٥) حديثاً حسب إحصاء قام به الدكتور خلدون الأحذب وقد ساق الخطيب البغدادي الروايات كلها بأسانيد، وهو عدد يزيد على عدد أحاديث بعض الأصول الستة.

من هنا يتبين لنا جانب من جوانب أهمية كتاب "تاريخ بغداد" بوصفه مصدراً من مصادر الحديث الشريف^(٤).

وتظهر أهميته كذلك بالتعريف بالكثير من الكتب المفقودة في مجالات مختلفة وذكر الكثير من الكتب التي لم يذكرها ابن

النديم في الفهرست وتبلغ (٢٩٨) كتاباً، ويبلغ مجموع الكتب التي ذكرها في كتابه حوالي (٤٤٦) كتاباً، ألقت جميعاً خلال القرون: الثالث والرابع والخامس، وهي في موضوعات شتى هي: علوم القرآن والقراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والعقائد والفرق، والرقائق والتصوف، وكتب أخرى متفرقات.

وعند مقارنة هذه القائمة بكتاب الفهرست لابن النديم تبين أن الخطيب البغدادي ذكر (٢٩٨) كتاباً لم يذكرها ابن النديم، مما يدل على أهمية الإضافة التي قدمها الخطيب البغدادي بسبب ذكره مصنفات أصحاب التراجم^(٥).

وأصبح تاريخ الخطيب مصدراً مهما لكثير من مؤرخي الإسلام الذين استفادوا منه كثيراً وأصبح لهم مرجعاً رئيساً في كتبهم، وهذا السبكي (ت ٧٧١هـ) قال عنه: يعدّ من محاسن الكتب الإسلامية^(٦).

وأثنى عليه طاش كبري زاده (ت ٩٦٥هـ) بقوله: "كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه فإنه يدل على اطلاع عظيم"^(٧).

ومما يدعو إلى اليقين أن اعتماد

المؤرخين في كتبهم على تاريخه يدل على ثقتهم به وبمادته، ومن المؤرخين من اعتمد على كتاب الخطيب البغدادي مثل:

ابن مأكولا (ت ٤٧٥هـ) في كتابه "الإكمال".

وأبو يعلى (ت ٥٢٦هـ) في "طبقات الحنابلة".

والسمعاني (ت ٥٦٢هـ) في "الأنساب".

وابن عساكر (ت ٥٧١هـ) في "تاريخ دمشق".

وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) في "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" وأيضاً في كتابه "المصباح المضيء في أخبار المستضيء".

والحموي (ت ٦٢٦هـ) في كتابيه "معجم البلدان" و"إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب".

وابن خلكان (ت ٦٨١هـ) في "وفيات الأعيان".

والمزي (ت ٧٤٢هـ) في "تهذيب الكمال".

والذهبي (ت ٧٤٨هـ) في جميع كتبه مثل "تذكرة الحفاظ" و"العبر" و"سير أعلام النبلاء" وغيرها.

والسبكي (ت ٧٧١هـ) في "طبقات

الشافعية".

والصفدي (ت ٧٦٤هـ) في "الوافي".

وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في "البداية والنهاية" وغيرهم من المؤرخين^(٨).

فكان الخطيب البغدادي ممن أسهموا في هذا الجانب التاريخي بكتابه الكبير "تاريخ بغداد" الذي جمع فيه خلاصة ترجمة العلماء الذين عرفتهم بغداد حتى أواسط القرن الخامس الهجري، وأصبح مثالا يحتذى به كل من تطرق إلى التاريخ للمدن مثل ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق"، وابن العديم في كتابه "غية الطلب في تاريخ حلب".

ويكفي هذا الكتاب أهمية في استخدام الخطيب لمئات المصادر في تأليف هذه الموسوعة التاريخية، واستعماله الإسناد ودقته في النقل منها مما حفظ لنا ثروة عظيمة من النصوص. . وقد بينت الدراسة التي قام بها الدكتور أكرم العمري لموارد تاريخ الخطيب ضخامة الموارد التي استقى منها المؤلف مادته^(٩).

❖ عنوان الكتاب ومضمونه:

عنوان الكتاب مفصلاً هو "تاريخ بغداد أو مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطنائها العلماء من غير أهلها ووارديها"

هذا ما اتفقت عليه النسخ الأصلية.

وقد ألفه الخطيب البغدادي من رجال القرن الخامس الهجري وكان حافظاً للقرآن ومؤرخاً وفقياً وأديباً وقد عرف بغزارة مؤلفاته.

وعين المؤلف إطار بحثه المسهب في مقدمة موجزة لا تتجاوز صفحة واحدة قال فيها: "هذا كتاب تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها وذكر كبراء نزلها وذكر واريدها وتسمية علمائها"^(١٠).

وواضح من عنوان الكتاب ومن هذه الكلمات الممهدة أن الكتاب تأريخ مسهب لعاصمة العباسيين.

وأن الشطر الأوفى منه تناول موضوع التراجع بصورتها العامة أي كما قال الخطيب: إنه في ذكر كبراء ونزال بغداد ووارديها وعلمائها. فالكتاب رغم عنوانه الذي يوحي أنه ينطوي على مادة تاريخية، هو في حقيقته كتاب تراجع في الدرجة الأولى.

وهو يشبه إلى حد ما كتاب نفح الطيب للمقرئ من حيث احتواؤه تاريخ البلد وجغرافيته ثم تراجع أعلامه.

وإذا علمنا مدى أهمية بغداد في القديم، وأنها أكبر حواضر العلم والفكر

والسياسة في التاريخ العربي الإسلامي وما عاش خلاله من رجال أعلام على مر العصور حتى عهد المؤلف، أدركنا قيمة هذا الكتاب وفهمنا سبب ضخامته.

والكتاب في ظاهر اسمه مقصور على بغداد كما يوحي عنوانه ولكنه يتعدى هذا النطاق في الواقع لأنه رصد للحركة العلمية الشاملة في عهد العباسيين الزاهر وبخاصة في حاضرتهم بغداد، بل إنه موسوعة ضخمة تتناول كل ما يتعلق بدار السلام وحضارتها. وقد أحسن المؤلف صنعا حين ترجم لمن وفدوا عليها وألموا بها من خارجها. وبهذا غدا طابع "تاريخ بغداد" عاماً شاملاً إذ قلما نبغ عالم أو شاعر أو أديب أو فقيه دون أن ينزل بمدينة السلام أو يلم بها.

ولهذا نجد تراجع العديد من غير البغداديين أصلاً كأبي الطيب المتنبّي وسواه.

ومثل هذا الشمول في مادة الكتاب يتجلى في تراجع أعلام البغداديين والوافدين عليها من الخلفاء والملوك والوزراء والنحاة والصرفيين والبيانين واللغويين والقراء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين والمنطقيين والفقهاء والقضاة

والكتاب والخطاطين والشعراء والمؤرخين
والمغنين وحذاق الصنائع والرماة والفرسان
والناغبين.

يتبع في العدد القادم ان شاء الله

والزهاد والمتصوفة والقصاص والوعاظ
والرياضيين والحساب والفلكيين والمنجمين
والموسيقيين والأطباء والصيادلة والجراحين

الهوامش:

(٣) الدكتور أكرم ضياء العمري - موارد الخطيب
البغدادي في تاريخ بغداد - دار طبعة - الرياض
١٤٠٥/١٩٨٥، ص ١٠٨ .

(٤) انظر زوائد تاريخ بغداد، ٨٢/١.

(٥) انظر أكرم العمري، موارد الخطيب البغدادي في
تاريخ بغداد، ص ٩١.

(٦) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٥٩/٣ تحقيق عبد
الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي،
هجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢.

(٧) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٢٣/٢، دار الكتب
العلمية.

(٨) انظر أكرم العمري، موارد الخطيب البغدادي في
تاريخ بغداد، ص ٩٠.

(٩) انظر مقدمة بشار عواد في تحقيقه لـ " تاريخ
مدينة السلام" للخطيب البغدادي ص ١١١.

(١٠) تاريخ بغداد ج ١، ص ٣٠ تحقيق مصطفى عطا،
دار الكتب العلمية.

(١) درس حياته كل من يوسف العش في كتابه:
"الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها"، وأكرم
ضياء العمري في كتابه "موارد الخطيب البغدادي
في تاريخ بغداد"، وبشار عواد معروف في مقدمة
تحقيقه لـ "تاريخ مدينة السلام" للخطيب
البغدادي، ومحمود الطحان في كتابه: "الحافظ
الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث"،
وخلدون الأحمد في كتابه "زوائد تاريخ بغداد
على الكتب الستة"، ويوسف السعيد في تحقيقه
"القول في علم النجوم" وترجم له: ابن عساكر في
تاريخ دمشق ٢٢/٧ وابن الجوزي في المنتظم
٢٦٥/٨ ويقفوت في معجم الأدباء ٣٨٤/١ وابن
الأثير في الكامل ٦٨/١٠ وابن خلكان في وفيات
الأعيان ٩٢/١ والذهبي في سير أعلام النبلاء
٢٧٠/١٨ .

(٢) انظر في ثناء العلماء عليه وتوثيقه ومكانته عند
العلماء: تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٣٧/٣، طبقات
الشافعية للسبكي ٣١/٤، الأنساب
لسمعاني ١٥١/٥، وفيات الأعيان لابن
خلكان ٧٦/١، المنتظم لابن الجوزي ٢٦٧/٨.